

تفسير البيضاوي

6 - { إن الذين كفروا } لما ذكر خاصة عبادة و خلاصة أولياء صفاتهم التي أهلتهم للهدى

والفلاح عقبهم بأصدادهم العتاة المردة الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا تغني عنهم الآيات والنذر ولم يعطف قصتهم على قصة المؤمنين كما عطف في قوله تعالى { إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم } لتباينهم في الغرض فإن الأولى سبقت لذكر الكتاب وبيان شأنه والأخرى مسوقة لشرح تمردهم وانهماكهم في الضلال و (إن) من الحروف التي تشابه الفعل في عدد الحروف والبناء على الفتح ولزوم الأسماء وإعطاء معانيه والمتعدي خاصة في دخولها على اسمين ولذلك أعلمت عمله الفرعي وهو نصب الجزء الأول ورفع الثاني إيذاناً بأنه فرع في العمل دخيل فيه .

وقال الكوفيين : الخبر قبل دخولها كان مرفوعاً بالخبرية وهي بعد باقية مقتضية للرفع قضية للاستصحاب فلا يرفعه الحرف وأجيب بأن اقتضاء الخبرية الرفع مشروط بالتجرد لتخلفه عنها في خير كان وقد زال بدخولها فتعين أعمال الحرف وفأثرتها تأكيد النسبة وتحقيقها ولذلك يتلقى بها القسم ويصدر بها الأجوبة وتذكر في معرض الشك مثل قوله تعالى : { ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً * إنا مكنا له في الأرض } وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين { قال المبرد (قولك : عبداً قائم إخبار عن قيامه وإن عبداً قائم جواب سائل عن قيامه وإن عبداً لقائم جواب منكر لقيامه) وتعريف الموصول : إما للعهد والمراد به ناس بأعيانهم كأبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وأخبار اليهود أو للجنس متناولاً من صمم على الكفر وغيرهم فخص منهم غير المصريين بما أسند إليه والكفر لغة : ستر النعمة وأصله الكفر بالفتح وهو الستر ومنه قيل للزارع وللليل كافر ولكمام الثمرة كافر وفي الشرع : إنكار ما علم بالضرورة مجيء الرسول A به وإنما عد ليس الغيار وشد الزنار ونحوهما كفراً لأنها تدل على التكذيب فإن من صدق الرسول A لا يجترئ عليها ظاهراً لا أنها كفر في أنفسها .

واحتجت المعتزلة بما جاء في القرآن بلفظ الماضي على حدوثه لاستدعائه سابقة المخبر عنه وأجيب بأنه مقتضى التعليق وحدثه لا يستلزم حدوث الكلام كما في العلم .

{ سواء عليهم أن نذرتهم أم لم تنذرهم } خير إن وسواء اسم بمعنى الاستواء نعت به كما نعت بالمصادر قال ابن تعالى : { تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم } رفع بأنه خير إن وما بعده مرتفع به على الفاعلية كأنه قيل : إن الذين كفروا مستوا عليهم إنذارك وعدمه أو بأنه خير لما بعده بمعنى : إنذارك وعدمه سيان عليهم وبالفعل إنما يمتنع الإخبار عنه إذا

أريد به تمام ما وضع له أما لو أطلق وأريد به اللفظ أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمنا على الاتساع فهو كالاسم في الإضافة والإسناد إليه كقوله تعالى : { وإذا قيل لهم آمنوا { وقوله : { يوم ينفع الصادقين صدقهم { وقولهم : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه . وإنما عدل ههنا عن المصدر إلى الفعل لما فيه من إيهاام التجدد وحسن دخول الهمزة وأم عليه لتقرير معنى الاستواء وتأكيداه فإنهما جردتا عن معنى الاستفهام لمجرد الاستواء كما جردت حروف النداء عن الطلب لمجرد التخصيص في قولهم : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة . والإنذار : التخويف أريد به التخويف من عذاب الله وإنما اقتصر عليه دون البشارة لأنه أوقع في القلب وأشد تأثيرا في النفس من حيث دفع الضر أهم من جلب النفع فإذا لم ينفع فيهم كانت البشارة بعدم النفع أولى وقرئ { أنذرتهم { بتحقيق الهمزتين وتخفيف الثانية بين وبين قلبها ألفا وهو لحن لأن المتحركة لا تقلب ولأنه يؤدي إلى جمع الساكنين على غير حده وبتوسط ألف بينهما محقتين وبتوسطها والثانية بين وبين وبحذف الاستفهامية وبحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها .

{ لا يؤمنون } جملة مفسرة لإجمال ما قبلها فيما فيه الاستواء فلا محل لها أو حال مؤكدة أو بدل عنه أو خبر إن والجملة قبلها اعتراض بما هو علة الحكم .

و الآية مما احتج به من جوز تكليف ما لا يطاق فإنه سبحانه وتعالى أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون وأمرهم بالإيمان فلو آمنوا انقلب خبره كذبا وشمل إيمانهم الإيمان بأنهم لا يؤمنون فيجتمع الضدان والحق أن التكليف بالممتمتع لذاته وإن جاز عقلا من حيث إن الأحكام لا تستدعي غرضا سيما الامتثال لكنه غير واقع للاستقراء والإخبار بوقوع الشيء أة عدمه لا ينفي القدرة عليه كإخباره تعالى عما يفعله هو أو العبد باختياره وفائدة الإنذار بعد العلم بأنه لا ينجح إلزام الحجة وحياسة الرسول فضل الإبلاغ ولذلك قال { سواء عليهم { ولم يقل سواء عليك كما قال لعبدة الأصنام { سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون { وفي الآية إخبار بالغيب على ما هو به أن أريد بالوصول أشخاص بأعيانهم فهي من المعجزات